

زنوبيا: وحكاية أمينة عن اللجوء والهجرة عبر البحر.. والوجود!



18 يناير 2020 - 10:54

تحسين يقين

كل ما في القصة إبداعي، جعل العمل الأدبي مكتملا، لذلك كان أثرها عميقا جدا.

نص للمبدع مورتن دور ورسم وألوان للفنانة لارس هورنمان، يدل على وعي بعالم النفس والطفل بل والحياة.

قصة طفلة مهاجرة في قارب مكتظ بالمهاجرين، وحيدة، تعصف الأمواج به، فتلعب الأمواج بقسوة بحياتهم، فترى فيما يراه النائم، ما بين اليقظة لثوان ومفارقة الحياة، تستعيد «أمينة» ما كان من سلام البيت، اللعب والطعام الشهوي، ثم حكايات الأم عن الملكة زنوبيا، التي اعتادت الأم ترديدها لتشجيع طفلتها، بأن بإمكان المرأة القيام بما يقوم به الرجل، ثم لتستعيد حكاية رحلة الهجرة... في البحر.

قارب ممتلئ في عمق البحر، «فزوم» على الركاب الساهمين، متنوعي الأعمار، تجمع سحناتهم مشاعر التبعثر والتعب، والضياح، والخوف من المجهول، يرتدي بعضهم بذلة النجاة، تحتضن الأمهات أطفالهن، بعض الفتيان وقفوا على جوانب القارب يتطلعون إلى ما وراء الماء.. أمتعة قليلة، «شنط» للظهر شعور بالتعب الذي يصعب حتى معه إظهار الشعور. إنه إرهاق الجسد والروح، لبشر امتلأ القارب بهم، بافتراض أنه قارب النجاة. ثم «زوم» مقرب لطفلة، وضعت يديها فوق بعضها بعضا، إشارة إلى أنه ليس في اليد حيلة، في حين راحت عيناها تقرأ المشهد بشيء من الضجر والاستسلام أيضا. وهنا تم اختيار اللون الأزرق.

خوف يطل، ملامح الكبار ضاحجة خائفة، أما هي فتتابع التأمل الصامت دون خوف، من خلال عقد الذراعين على الرجلين جلوسا على الأرض، كما يلائم حالة الانتظار، فجاء اللون رماديا.

البحر هائج، يتقاذف القارب، يرتفع فيظهر كأن الركاب يطيرون منه.. لكن يقعون على صفحة الماء، سحناتهم تعبر عن مواجهة مصير صعب، هي آخر نظرات لعيونهم/ن، يزهدون بحقائبهم، لكن ظل الكبار، أمهات وآباء محتضنين أطفالهم.

وجه الطفلة تصافح قدرها في الماء فيه الخوف والتساؤل، أما الزيد فيترك بصماته بعد حرب الأمواج في مدها وجزرها، فكان اختيار اللون الرمادي مناسباً.

الطفلة الخائفة بدون حيلة ولا مقاومة ترتفع في الفضاء، وتهوي في الماء، تقلت «فردة» الحذاء، وتظهر فقاعات تنفسها.

هنا، في هذا الهدوء، في ثوان ولحظات، نرى المكان كبيرا وخاليا، لعل ذلك دفع الرسامة لاختيار الرمادي المخضر.

- «هنا لن يعثر علي أحد»!

9 صفحات، باللون البني والبيج، عبرت عن سياق زمني ومكاني آخر، استرجاعي، لعله ما يمكن أن يكون قد خطر بذهن طفلة تغرق، كحنين إلى البيت والأسرة، قبل ركوب

البحر هربا ولجوا من إيذاء البشر. هنا، تظهر مشاهد لعبة «أمينة»، «الطميمة»، التي نسميها «الغميضة أو الطمة»، يظهر البيت والباب وابتسامة الأم وحنانها، وكيف أن الأم لحبها لإسعاد ابنتها توهمها انها لا تعرف مكانها، لجلب السعادة لها.

ثم لتستكمل الكاتبة السرد، لتأتي صفحة زرقاء مخضرة (لوحة أمينة) تتادي بمأساة: أنا هنا في الماء!»!

ثم، تعود إلى تلك الأيام، مع مشهد آخر: إعداد الطعام، لتتلون الصفحات الأربع القادمة بالبنّي مرة أخرى، والبيج، وصنع الدولمة (ورق العنب المحشو)، يظهر نوعان من الدولمة، الأول ما اختيرت مذاقه أمينة، وهو المكون من أرز فقط، بسبب الفقر، أما النوع الثاني فيأتي من ذاكرة أم أمينة، «لحم الخروف، والفلفل الأسود، والثوم، وعصير الليمون، والزيتون»، ليأتي الأب ويعتبرها لذيذة، وهو لأنه يعرف حال الأسرة، يتحدث عن نقصان الملح، كونه الوحيد المتوفر مع الرز، حتى لا يجرح زوجته، التي تطفر من عينها دموع، حزنا على ما وصلت إليه الأسرة.

ثم لتستكمل الكاتبة السرد، لتأتي 3 صفحات لأمينة، مع عبارة «البحر أيضا مالح»، متذكّرة ذهاب والديها للمدينة، فصفحة بنية وبيج، تقوي الأم ابنتها وتشجعها كفتاة، وتذكرها بالملكة زنبوبيا، حيث 6 صفحات ما بين الأزرق لزنبوبيا، ملكة سورية، على خلفية بنية، مع معلومات عنها «كأجمل امرأة، ومحاربة، وأن مملكتها امتدت من الإسكندرية إلى أنقرة، من مصر إلى تركيا». تظهر تمر، ونعلم عن حربها ضد قيصر روما، وأنها «كانت تجيد ركوب الخيل مثل رجل وتقاتل مثل رجل وتحكم مثل رجل»، لذلك بإمكان أمينة أن تكون مثلها كما ترى أمها.

ثم، تعود إلى تلك الأيام، مع مشهد آخر: تعرض قريتها لغزو وقصف، لتتلون الصفحات الأربع القادمة بالبنّي مرة أخرى، والبيج، بعد أن انتظرت عودة والديها، وكيف أعدت الرز، تفاجأت بالبابات والطائرات بصوتها المزلزل.

ثم لتستكمل الكاتبة السرد، لتأتي صفحة زرقاء للملكة زنبوبيا، أو لعلها تتخيل نفسها كذلك، حيث ترى «أشعة الشمس عبر الماء»، فصفحة أخرى لها كأنها نائمة في الماء. هنا، تعود الصفحات بنية وبيج، 15 صفحة، تستأنف سرد خروجها مع عمها هربا من البلدة، بعد تردها لأنها بانتظار والديها، يقنعها العم بصعوبة ذلك، يتسللان من البلدة، حيث يختبئان من المسلحين في الطرق، حيث تظهر آثار الحرب والدمار. الكلب الخائف الوحيد، يجد نفسه مستأنسا بهما، لتظهر صفحتان زرقاوان لأمينة وهي تهوي في البحر نائمة، لتستأنف السرد، حيث عمها يفاوض الصيادين، الذين أخذوا منه كل نقوده.

تعود إلى الورا سريعا، لتتذكر أمينة، وكيف كانت تصنع نقودا ورقية تحاكي بها النقود، ورسمت عليها وجه زنبوبيا، لتشتري كعكا من أمها على سبيل التذلل واللعب. ثم (ليتناخل السرد البني والبيج 6 صفحات) عن رحلتها في القارب وحدها، لأن عمها أراد الاطمئنان عليها، فلا يملك مالا لراكبين. تقوي نفسها باستلهاهم روح زنبوبيا القادرة. يظهر القارب الصغير بحمولته الزائدة، يبحر القارب ليلا تمنحها امرأة قطعة بسكويت، رجل عجوز طيطب على خد أمينة، تحلم ببلد ليس فيه جنود. تعود الصفحات زرقاء 14 صفحة تتخللها صفحتان بالأسود، إلى النهاية، في القاع، تظهر سفينة غارقة باسم زنبوبيا، الأسماء سوداء، السفينة قديمة تحللت بفعل الماء. تهمس لأمها كأنها ما زالت تسترجع ما كان من لعبة: اعثري علي!

وكانها تصرخ للكون وللإنسانية!

لم تحدد القصة جنسية محددة، وإن أوحى إلى سورية، من خلال قصة الملكة زنبوبيا، ملكة تدمر، التي تم توظيفها في القصة، حينما شجعت الأم طفلتها بروايتها لها تقوية لها في مواجهة الحياة. لقد أبدع الكاتب بأن جعل القصة قصة كل المهاجرين.

نجحت القصة عالميا، ترجمت الى اللغات الكورية والنرويجية والسويدية والفرنسية والإسبانية والعربية والكرواتية والتركية والانجليزية والفارسية.

كما بدأنا بالأزرق ننتهي به..

والألوان تلك؟

8 صفحات منها الغلاف الأمامي في المقدمة، و9 في آخر القصة، بمجموع 17 صفحة زرقاء.. ترى على ماذا دللت؟ وماذا كان دورها؟

نصا ورسمًا، ولونا، يدل على وعي بعالم النفس والطفل بل والحياة؛ إنه رسم إبداعى، وتلوين أكثر إبداعا، بحيث جعل المساحة الزرقاء بحرا وسماء كبيرة بما تكفي لرحلة القراء الأطفال والطفلات، بحيث تجعلهم فعلا يحسون ويعيشون نفسيا وماديا تلك الرحلة، كأنهم في الماء، وتحت السماء، بما يحمل أيضا اللون الأزرق من دلالات متعددة، منها البرودة.

كذلك، من إبداع التلوين أنه يجعل الطفل يتحول موضوعيا مع اللون، فما أن يأتي المشهد بلون معين، حتى نراه يستأنف ما كان من أحداث، خصوصا البيت - الوطن بما فيه، وقصة زنبوبيا أيضا.

تنتهي القصة بعبارة المأساة:

«البحر كبير وخال، هنا لن يعثر أحد عليّ، هنا لن تعثر أُمّي ولن يعثر عليّ أبى»، إنها مشاعر مفتوحة على الزمان والمكان والإنسان.

في قاع البحر، نقرأ اسم زنوبيا باللاتيني على سفينة غارقة.. كأن الكاتب أراد إكمال الدائرة، بما كان من قصة ملكة تدمر، ونهايتها المأساوية.. ودائرة تكرار الحكاية في عالم البشر، وتلك المأساة الأكبر، رغم ما توحى به المأساة من عبث ساخر حينما تتكرر! مدهشة الرسوم، لقد عمقت النص فعلا. عمل ابداعي رائع، اعتمد على مخاطبة الطفل، شعورا عميقا وفكرا إنسانيا.. وعمق في الوقت نفسه حقوق الطفل في كل مكان: التزويد، والأمن، والتعليم، والترفيه.. إنها محاور اتفاقية حقوق الطفل الدولية؛ تلك التي وظفها الكاتب بعمق وإبداع من خلال اللعب والحكايات، والطعام.

النجاة النجاة!

نسلك سبلها.. ونحتاط، والمأساة حين تجري الرياح بما تشتهي أحلام الصغار والكبار..

إنها صرخة لوقف الحروب.. الآن وليس غدا.

القصة من تأليف الكاتب: مورتن دور، ورسومات الفنانة لارس هورنمان. الناشر للنسخة العربية: مؤسسة تامر، بدعم من البيت الدنماركي في رام الله، ترجمة دنى غالي. الطبعة الأولى دار نشر كوبولت - كوبنهاجن بدعم من اتحاد الكتاب الدنماركيين وصندوق دعم الفن والأدب الدنماركي.